كلمة أخيرة

بين العقاد والرافعي

وبيني وبين الرافعيين

للأستاذ سيد قطب

من بين الرسائل التي تلقيتها في أثناء كتابة هذه الفصول رسالة يقول فيها كاتبها الأديب « صلاح الدين الصدفي » بعد كلام كثير :

« . . . ونحن يا سيدي من سكان الريف الذين كثيراً ما يتأثرون بالآراء المتداولة ، والاشاعات المتصلة ، وقد كنا نعتقد أن العقاد كاتب سياسي من الطراز الأول ، ولكنا نفضل عليه في الكتابة الأدبية آخرين ، أسهل منه في الفهم ، وأعرف لدى الجماهير ، ثم تابعنا كلماتك فاستطعت أن تشوقنا إلى قراءة مؤلفاته النثرية على ضوء جديد ، ولكننا إلى أمد قريب كنا لا نميل إلى الاعتراف بشاعرية العقاد ، فان كان شاعراً فهو شاعر الفلسفة والتأمل لا شاعر العاطفة ، وإذا سلمنا أن له في شعر العواطف شيئاً ، فما كنا نصدق أنه شاعر غزل . وأخيراً انكشفت عنا هذه الحجب التي بثثتها فينا دعايات مغرضة ، وإذا بنا نفهم أن العقاد هو كل أولئك ، وأنه ممتاز في جميع مناحي الشعور ، متفوق في كل هذه الاحساسات ، وأسفنا على ضياع زمن طويل ، لم نتنبه فيه إلى خصوبة هذا الانتاج الوفير . . . »

هذه الرسالة جماع ما ورد إلي في رسائل متفرقة ، وفي هذه الفقرات القصيرة ما يبرر البسط والتوسع الذي عالجت به « غزل العقاد » خاصة ، وإن كنت أحس أن في القول مقدماً وأن غزل العقاد وشعره عامة ، يصلح لدراسات مستفيضة ، ولشروح وتآليف تجعل منه — كما يستحق — مذهباً قائماً ، معروف المعالم ، واضح السمات .

وشعر العقاد فن خصب ، صالح للدراسة على أنماط مختلفة من الطرق والأوضاع ، فتستطيع أن تدرس فنونه كل فن على حدة كما صنعت في « غزل العقاد » وتستطيع أن تدرس اتجاهاته وتلتمس لها أمثلة من مختلف فنونه ، كما صنعت في محاضرتي عام ١٩٣٤ عن « وحي الأربعين » . وحيثما اتجهت في الدراسة وجدت مادة جديدة ، وذخيرة فنية ، لأن العقاد صاحب طبيعة وصاحب فلسفة معينة في الحياة .

وقد اخترت أن أعرض « غزل العقاد » لأن الغزل عامة ، وعند العقاد خاصة ، معرض لجميع القوى النفسية التي تجيش بالشعر ، وتحفز للتعبير ، وفيه تستطيع أن تدرس نظرة الشاعر للكون والحياة وأغراضهما الأصيلة وآمالها الخالدة ، وتقف على رأيه في المثل العليا والأخلاق والفضائل ، وتميز إحساسه بالمرأة والفنون والجمال ، على نحو ما رأى القراء في الفصول السابقة .

ثم لقد كان هناك دافع آخر لاختيار الغزل فلقد كان حديثي عن الرافعي في غزله أو ما كتبه هو على أنه غزل ، وكان أمامي لاثبات رأيي في كلا الرجلين طريقان : الأول أن أعرض ما قاله الرافعي في هذا الباب وأفنده ، وهذا عمل أعتقد أن لا غناء فيه ولا جدوى منه لي ولا للقراء ، فقد قرأت كل ما كتبه الرافعي في هذا الباب ، فاذا هو خواء مقفر من كل عاطفة وإحساس ، فاذا أنا عرضته ، فانما أعرض قطعة من صحاري النفوس ليس فيها ندى ولا حياة ، ولن يصبر القراء معي — إذا أنا صبرت على قطع هذا القفار الموحش المتشابه الأرجاء . وبحسبي وحسبهم ما استعرضته من مثل هي نماذج لكل ما هناك

والثاني — وقد اخترته — أن أعرض غزل العقاد ، فأكشف عن هذا العالم الحي الناضج المضطرب بشتى الانفعالات والاتجاهات ثم يخلص بنا القول فيه إلى أن كل ما تجده هنا لا تجده عند الرافعي ، لأن العقاد والرافعي مختلفان متناقضان

ولقد شاءت الظروف أن يكون العنوان : « بين العقاد والرافعي » فتوجد رابطة بين اسمي هذين الرجلين ، لا وجود لها في أدبهما ولا اتجاههما ولا في شيء مما يصح فيه التشابه والارتباط

والواقع لقد كان في هذا الجمع بينهما ظلم لكليهما : فأما العقاد فمظلوم — ولا شك — أن يقرن اسمه إلى اسم الرافعي ، وبينهما هذه الهوة السحيقة الفاصلة ، الهوة التي تفصل بين الصورة الفنية ترمز إلى معنى وتكاد تجيش بالحياة ، وتهمس بالنطق والتعبير والنقوش التي تراها على أبواب المساجد ونوافذها : خطوطاً متعرجة أو مستقيمة ودوائر ومثلثات ومربعات كلها من عمل

السطرة والبركار ، ولا شيء وراءها غير المهارة فى اللعب والتزويق

فعشاق الصور الفنية محال أن يلتفتوا إلى هذا العبث على أبواب المساجد وأمثالها من شغل « الأربسكة » المعروف عند النجارين ، مهما بلغ التفنن فى نقوشه وألوانه ، وعشاق « الأربسكة » لا يتطلعون إلى فهم الصور الفنية بحال من الأحوال

والرافعى كذلك مظلوم — ولا شك — أن يقرن اسمه إلى اسم العقاد ؛ فيطالبه النقاد حينئذ بالحياة والحركة والعمق ، أو يطالبونه برأى معين فى مسائل الحياة الكبرى وفى نواحى الاحساس والشعور ، وارحل فى عالم آخر غير هـذا كله ، عالم الأخشاب المنقوشة والشرفات المزركشة ، والأصباغ والألوان.

وما زلت كلما عـدت إلى قراءة شيء من كتابة الرافعى ، يمتد بى الخيال إلى « البهلوان » الذي « يتقصع » فى مشيته ويضع يده فى خاصرته ، ويأبى أن يسير فى الطريق بخطوات سهلة كما خلقه الله !

* * *

أما شأن الرافعيين معى ، فشأن الرافعى مع العقاد سواء بسواء. كنت أعرض لهم الحياة المائجة الهائجة ، فيعرضون لى النصوص والألفاظ ؛ وكنت أحاول أن أفتح أبصارهم وأفتق إحساسهم ، وأفهمهم أن فى الدنيا شيئاً غير التعبير المزوق ، وغير اللفتات الذهنية الغريبة ، واللماحات اللولبية ، والجمل المثنية المترافصة ، فيأبوا إلا أن يعودوا إلى هذا العبث العابث فى لف ودوران

ولست على استعداد أن أستعيد ما قلت وقالوا ، فقد أنفقوا — على ما يظهر — كل رصيدهم فى هذه الكلمات المكرورة المعادة التى كتبوها ، وما هذا بعجيب ، فما لهم رصيد سوى بضع جمل وبضعة تعبيرات ، وما كان لهذا العالم المصنوع الذي يعيشون فيه ، ولا ينفذون منه أبداً إلى ضجة الحياة ، أن يكون له رصيد مذخور سوى الخواء والافتقار

ولكننى أريد أن أعرض لبعض ما قاله مندوبهم الأخير ، وأشاد به ما قالوه واحداً بعد الآخر فى جهد وإعياء شديد

لقد أخذ يردد نغمة العوام فى الموتى والأحياء ، ويعتمد على شعور هؤلاء العوام فى تقدير موقفى وأنا أتحدث عن العقاد الحى ، وموقفهم وهم ينافحون عن الرافعى الذى مات

والمسألة — فى ظاهرها — كما يقولون ، ولكن الواقع غير ذلك ، فأنا فى دفاعى عن العقاد أمجد وأشرف من دفاعهم عن الرافعى ، إذا كان مناط الحكم فى هذا ما يناله كلانا من ربح أو خسارة ، على النحو الذى يفهمونه هم من الربح والخسارة

فماذا يكلفهم الدفاع عن الرافعى ؟ إنه لا يكلفهم شيئاً ، بل على العكس يكسبهم حسن الأحدوثة — لدفاعهم عن رجل ميت — عند عوام القراء والأدباء فى هذا البلد وهم بحمد الله كثيرون ؛ ويكسبهم — كما يريدون — سمة الدفاع عن الدين ، وأتباعه بالملايين فى مصر والبلاد العربية ؛ ويكسبهم محبة الأسلوبيين والعاجزين عن التحليق فى الأجواء الفنية العالية ، وهؤلاء يكونون تسعين فى المائة من القراء بل من الأدباء ، ولا يتعرضون لخطر واحد مما يتعرض له أنصار العقاد

أما الدفاع عن العقاد فيكلفنى التعرض لغضب الكثيرين من ذوى النفوذ فى هذه الوزارة وفى كل وزارة ، ومن بينهم كثير من رؤسائى فى وزارة المعارف نفسها ، لأن العقاد رجل لم تبق له قولة الحق صديقاً من السياسيين ، وكثير ممن يظهرون صداقته يكنون له غير ذلك لأنهم ينفسون عليه شموخه واعتداده بنفسه وتعاليه على الضرورات

ويكلفنى خصومة الأدباء من المدرسة القديمة والحديثة على السواء . فأما أولئك فسبب سخطهم معروف ، وأما هؤلاء فلأنهم ينفسون على العقاد أن يعطيه ناقد بعض ما يستحق من تقدير ، ومن لا يعرف هـذه الحقيقة فأنا — وقد أتاحت لى الظروف الاطلاع على داخلية كثير من الصحف والأدباء — أعرف ذلك وأعرف أن الكلمات التى يقدر فيها العقاد لا تجد طريقها سهلا للظهور فى الصحف على اختلاف أهوائها ونزعاتها السياسية ، واختلاف المشرفين عليها من الأدباء وغير الأدباء

ويكلفنى خصومة كثير من ناقصى الرجولة — وهم أعداء العقاد الطبيعيون — وكثير من ناقصى الثقافة الذين لا يفهمون العقاد فيحملونه تبعة عدم فهمه ولا يكلفون أنفسهم عناء الدرس والثقافة . وكثير من مغلقى الطباع الذين يستغلقون أمام كل أدب حى . وكثير وكثير ممن يؤلفون أكثرية القراء فى هذا البلد المنكوب ...

وقد يفهم هؤلاء النفعيون أن للعقاد الآن نفوذاً ننتفع به ؛ فلهؤلاء أقول : إن للعقاد نفوذاً نعم ، ولكنه لا يستخدمه

فى قضاء المصالح وتنفيذ الأغراض ، إنما يحتفظ به لنفسه فى إبداء آرائه ، واستقلال شخصيته ، وتحطيم من يستحق التحطيم وبناء من يستحق البناء

وذلك بغض النظر عن طبيعتى الخاصة فى الانتفاع بنفوذ الأصدقاء ، ذلك الانتفاع الذى يبدو غير مفهوم ، حينما كنت أناصر العقاد وهو خصم الوزارات القائمة ، وأوقع على ما أكتبه بامضائى الصريح ، فى أحرج الأوقات

فخرافة الموتى والأحياء لا يرددها هؤلاء ، إلا كما يرددها الأميون والعوام

وقد استكثر مندوبهم الأخير أن أقول : إن العقاد انتصر على الوفد وعنده عدة المال وعدة الحكم وعدة الماضى الوطنى وكل عدة تؤهل للنجاح .

والذين يعيشون فى ظلام الجحور يحق لهم أن يعجبوا لهذا الكلام . أما الذى وقف على صنوف محاربة الوفد للعقاد وهو فى إبان سطوته ، وعرفوا أنها لم تقف عند الخصومة الشريفة فى سلاح ولا وسيلة ، والذى يذكر الظروف التى خرج العقاد فيها على الوفد وما تلاها ، فانما يعلم أننى اقتصدت فى هذا المقال !

الذى يعلم أن هذه الخصومة وصلت إلى حد محاربة العقاد فى اللقمة ، فلم تكتف بمحاربة الصحف التى يعمل فيها حتى يكف عن الكتابة الشهور الطوال ، بل كانت تدفع لأصحاب المكتبات مئات الجنيهات حتى لاتبيع كتابا للعقاد ، وأى كتاب ؟ إنه كتاب سعد زغلول الزعيم الأول لهؤلاء الخصوم ؟

والذى يعلم أن هذه الخصومة هاجت وماجت لأن العقاد ألقى محاضرة من محطة الاذاعة الحكومية — على عهد الوزارة الصديقة — ولأن هناك مبلغا يدفع قيمة لهذه المحاضرة ، فاما أن تكف المحطة عن محاضرات العقاد وإما أن تعاقبها الحكومة باهمال تحصيل الضريبة !

والذى يعلم أن هذه الخصومة كانت تلجأ إلى أصدقاء العقاد لتتخذ منهم جواسيس عليه وتدفع لهم ثمن هذه الجاسوسية علاوات وترقيات ومكافآت ، فلم يسلم من هذا الاغراء إلا القليلون من خواص العقاد !

الذى يعلم هذا وسواه ، ويعلم أن العقاد خرج والوفد فى عنفوان قوته الأدبية والمادية ، وجرؤ على ما لم يجرؤ عليه إنسان قبل ، فحطم قداسة الأصنام ، ولفح هذا الجسم الضخم بجراثيم الفناء التى ظلت تعمل عملها حتى خرّ بعد ذلك فى الميدان

الذى يعلم كل ذلك لا يستكثر ما قلت ، إلا أن يكون كصاحبنا يعيش فى صومعة لا ينفذ إليها الضياء

وحكاية الدين والأدب ، التى لجّ فيها ، وجعلها محور الحديث ، وقد تهكمت عليها من قبل ، لأنها لا تناقش بغير التهكم ، فأريد أن أفهم إذا نحن سرنا على هذه القاعدة العجيبة ، وأسقطنا من حسابنا الأدب غير الدينى فى الأدب العربى كله ، ماذا يبقى لنا بعد ذلك من هذا التراث الضخم ؟ اللهم إلا قصيدة البردة وبانت سعاد وبعض الأدعية والأوراد !

وصاحبنا أستاذ الكيمياء فى كلية الطب — هكذا كتب أخيرا ليهددنا بعلمه الغزير وينكر علينا علمية التفكير وعلمية الأفكار ، ويشرح خواص الذهب الوارد فى بيت الرافعى . ومع هذا يطاوعه علمه أن يقول : إن الكيماويين يصفون الذهب بأنه فلزنبيل ، والذى وصل إليه علمى القليل أن هؤلاء الكيماويين يصفون الذهب بأنه فلزبليد لأنه لا يتفاعل مع الأكسجين ولا مع كثير من الأحماض ، ويصفون معدنا كالحديد مثلا بأنه فلزنشيط لسرعة تفاعله ، لأن مدار وصفهم للفلزات قائم على أساس التفاعل لا الثمن ، ولا أدرى من أين أتى صاحبنا بهذا القول الفريد !

ولست أعنى بهذا أن أناقش الكلام الطويل العريض الذى فسر به أبيات الرافعى ، فسواء كان الذهب نبيلا أو خسيسا ، فسيبقى شعر الرافعى وأدبه كما يدور حول الصور الذهنية الكابية ويتيه فى القفر الجامد اليباب

***

وبعد فقد رأى الناس مما كتبه هؤلاء وما كتبه الرافعى قبلهم ، أنه ليس من اليسير عليهم فهم العقاد ، وأنه ليس من مصلحة العقاد أن يفهموه ، فانما هم بمستطيعين فهمه حتى يسف هو ويقفر ويمسخ خلقاً غير هذا الخلق الباسق الجبار .

ولقد اطمأن العقاد إلى مكانه من الشهرة ومقامه من الخلود ، فما يعنيه أن يثلبه ألف رافعى ، وما ينقصه أن يقول فيه هؤلاء الرافعيون .

وفى نهاية هذا البحث أجد لزاماً على أن أشكر للرسالة وصاحبها إفساح هذا المجال ، وأرجو أن أكون قد أفدت القراء بقدر ما استغرقت من فراغ . والسلام .

حلوان عبد قطب